الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

أحزان الإسكندريين توجه الفكر إلى نظرة فلسفية — بين الاحتلال والاستقلال — الاحتقلال — الألبان — محمود وصف — غرائب التعابير — الكاتب السوى — شيطنة أدبية — هل فى الأدب ديكتاتورية ؟ — بعض ما يجهل الشبان — صيد الحوت فى بحر الشمال ! — كلمة صريحة إلى الأستاذ « فريد أبو حديد » .

أحزان الإسكندريين

وهذا خطاب جديد من الأستاذ عبد اللطيف النشار ، وهو يدعونى إلى أداء دَين الإسكندرية شعراً ، كما أديته نثراً ؛ ثم يهتف :

نبكى لغرناطةٍ حزناً ولم نرها فكيف بالثغر يذوى تحت أعيننا
يزول يوماً فيوماً من محاسنه ما كان ملء الليالى بهجة وسنا

وأجيب بأن من العسير علىّ أن أوجه خيالى إلى فواجع الإسكندرية ؛ فما أدمت التفكير فى نكبتها لحظات إلا شعرت بدُوار عنيف يزلزل إحساسى بالوجود

والأستاذ النشار يروى فى خطابه حديث اليونانى الذى رأى بعينى رأسه رجلاً فى جبة خضراء يخرج من قبر « أبى الدرداء » ويلتقط الطوربيد ؛ ثم يضعه فى فناء المحافظة ، ويأمره بأن لا ينفجر[1] . (وهو الطوربيد الذى لم ينفجر فى دار المحافظة على بعد ثلاثة أمتار من قبر أبى الدرداء ، وقد وجد الطوربيد ملفوفاً فى باراشوت أخضر اللون)

ثم يقول الأستاذ النشار فى هامش الخطاب :

« فاتنى أن أؤكد لك أن شعور العامة أنه يومٌ دينىٌّ من كبار المواسم لظهور كرامة فيه لأبى الدرداء الذى تقتله البرد كراهية منه للنار ، فهو يحمى الإسكندرية من الاحتراق »

وأقول : إنى لا أعرف بالضبط أين دُفن أبو الدرداء ، ولا أعرف المكان الذى تحتله هذه « الرواية » بين الجِدّ والمزاح ، ولكنى مع هذا لا أستبعد أن يكون للأموات أياد فى مصاير الأحياء ؛ فقد حبّرتُ أكثر من سبعين صفحة من صفحات « التصوف الإسلامى » فى تأييد نظرية « وحدة الوجود » .

ولم يبق عندى شكٌّ فى أن الوجود كله مربوط بِرباط وثيق من الكهرباء ، بحيث لا تنتقل ورقة من الخضرة إلى الذبول ، ولا يتحول جسدٌ من الحياة إلى الموت ، بدون تأثير فى الوحدة الوجودية ، وإن غفل عن ذلك من يكتفون بما تقع عليه الحواس

وإذن فمن حق الإسكندرية أن تستنجد بأرواح أبنائها البَرَرة والفَجَرة من أقدم عهودها إلى اليوم . ومن حقها أن تثق بأن كربها لن يطول ، لأنه ليس إلا مرحلة قصيرة من مراحل الوحدة الوجودية وهى تنتقل باستمرار من وضع إلى وضع بدون أن يظهر أنها تفرق بين السعود والنحوس

ثم ماذا ؟ ثم أقول بأنْ لا موت فى هذا الوجود ، فليس فيه موجودٌ غيرُ حىّ ، ولو كان هباء تذروه الرياح ، فما كانت الحياة إلا عَرَضاً من أعراض الوجود ، لأنه فى ذاته أصلٌ من الحياة ومن الموت

ولهذه الفكرة الفلسفية تفاصيل لا يتسع لها هذا الحديث

بين الاحتلال والاستقلال

دعونا أصدقاء الرسالة إلى الموازنة بين حالين من أحوال الشعوب : هما حال الاحتلال وحال الاستقلال ، فكيف أجابوا ؟

كان جواب الأديب « م . ف . م »[1] أن عهد الاحتلال فى مصر كان أفضل من عهد الاستقلال ، ولكن كيف ؟

كانت جداول « المناويات » تُنفَّذ بدقة فى عهد الاحتلال ، وكان التلاميذ أكثر التفاتاً إلى الدروس ، وكان الزعماء أقوى وأقدر على النضال الشريف

وأقول إن هذه الشواهد لم تقتضى بأن الاحتلال أفضل من الاستقلال ؛ فجداول المناويات لا تحتاج فى مراعاتها إلى عناء ، وأنا مستعدٌّ لنقل جميع شكاياته إلى وزير الأشغال

أما انصراف بعض التلاميذ عن الدروس فله أسباب غير الاستقلال . وأما قوة الزعماء فى عهد الاحتلال فلا ترجع لمزية

(١) أنا لا أدغم « أن » الناصبة فى « لا » النافية ، فأرجو حضرة المصحح أن يتفضل بمراعاة ذلك

(١) رمزنا إلى هذا الأديب لئلا يؤذيه التصريح فى هذا الشأن الدقيق

أساسية من مزايا الاحتلال ، وإنما هى ثورة طبيعية يؤرثها الشوق إلى الاستقلال

ويقول هذا الأديب : « الاستقلال حلو ولذيذ ، ولكن ... »

وأقول إن الاستقلال لا يوصف بأنه حلو ولذيذ أيها الفلاح الأديب ، وإنما يوصف الاستقلال بأنه متعب وشاق ، لأنه يفرض على جميع أبناء الأمة أن يكونوا رجالاً أقوياء ، وأمناء ، والتسلح بالقوة والأمانة لا يُنال بغير جهاد عنيف

أما الأديب أحمد العجمى فيقول : إن صورة العبد الآمن فى رعى سيده هى صورة الشعب الذى ينعم بالرغد تحت ظل الاحتلال ، ثم يقول إن الاستقلال ليس وسيلة وإنما هو غاية من أبعد الغايات فى الحياة

وأنا أنتظر آراء أصدقاء « الرسالة » فى هذا الموضوع الدقيق على شرط أن يتركوا العبارات الخطابية ، لأنى أحب أن يتضح هذا الأمر بأساليب تغرس الإيمان الوثيق ، مع الترحيب بالآراء التى أبداها « فلاح التوفيقية » لأن أمثال هذه الآراء تتيح فرصاً كثيرة لتبديد الشبهات التى توجه إلى عهد الاستقلال

الرحمة الله

ليست هذه كلة الأستاذ إسعاف النشاشيبى ولا كلة المرحوم أحمد زكى باشا ، وإنما هى كلة نحتها اللغوى المحقق الأستاذ محمد وحيد الأيوبى

الألعبان

وما دام الحديث ذا شجون فأنا أذكر نادرة تمثل أخطار الأقلام فى هذه البلاد ، وتبين أن عداوة الشعراء فى العصر القديم ليست أخطر من عداوة الكتّاب فى العصر الحديث ... والكاتب فى زماننا أقدر من الشاعر على الإيذاء : لأن حرية التعبير تخلق له آفاقاً لا يصل إليها الشاعر المحبوس فى قفص القوافى والأوزان ، ولأن للكاتب مجالات لا يجرى فيها الشاعر ، وإن بالغ فى التلطف والاحتيال

كان الأستاذ وحيد الأيوبى يعادى الزعيم سعد زغلول ، وكان يكتب فى قدحه عبارات لذاعة تحت عنوان « الألعبان » أشهرها العبارة الآتية :

« الآن » وبعد فوات الأوان ، يتكلم عن السودان ؟ أما ألعبان !!! »

وقد رأت « حلو الهلال » أن تصدر مجلة فكاهية باسم « الألعبان » فرفضت وزارة الداخلية بحجة أن فى هذا الاسم تعريضاً بالزعيم سعد زغلول ، وسمحت بأن يحول الاسم من وضع إلى وضع فيصير « الفكاهة » لا « الألعبان »

أليس هذا دليلاً على أن الكاتب خَلَفَ الشاعر فى إيذاء الرجال ؟

اتقوا شر الكتاب ولا تخاطبوهم إلا باحتراس ، فهم شعراء هذا الزمان !

عمود ونصف !

كانت أطول مقالة للأستاذ عبد القادر حمزة لا تزيد عن عمود ونصف ، إلا أن يجدّ ظرفٌ قاهر يوجب الترسل الفياض

أكتب هذا بمناسبة خطاب أرسله إلىّ الأستاذ حافظ محمود سكرتير لجنة الاحتفال بتأبين صاحب البلاغ ؛ ومنه علمت أن الوقت لا يتسع لكلمتى فى رثاء ذلك الصديق الغالى

ولو كانت لجنة الاحتفال تعلم الغيب لعرفت أن كلمتى فى رثاء عبد القادر حمزة لم تكن تزيد عن عمود ونصف ، اقتداء بصاحب البلاغ فى اكتفائه بعمود ونصف ، وتوجيهاً لمن يفوتهم أن بعض المقامات تجعل الإيجاز أبلغ من الإطناب

أنظروا ، ثم انظروا ، عواقب المخلصين !

كنت وحدى الصديق لصاحب البلاغ فى كثير من العهود ، وأنا اليوم لا أجد فرصة أتحدث فيها عنه بما أشاء ، لأن الموت صرف عنه العداوات الوقتية ؛ فأصبح أصدقاؤه يعدون بالألوف وألوف الألوف ، بحيث يتعذر على أصدق محبيه أن يودعه بكلمة رثاء فى حفل مشهود

ما أسعدنى بما صرتُ إليه يا أخى وصديقى !

لقد كنت أخشى أن تلاحقك العداوات فلا يقوم بتأبينك رجلٌ غيرى

ولكن نحن فى مصر ، يا أخى وصديقى ، مصر التى تحفظ الجميل لأبنائها الأوفياء وإن تظاهرتْ حيناً بالتنكر لجدهم الأصيل

غرائب التعابير

إن قلت : « كان المرحوم مصطفى كامل يطالب بالجلاء ، كانت « المرحوم » كلة خفيفة الوزن فى الترحم على رجل من

نوادر الزعماء ، وإنما ينبغي أن تقول : « كان المغفور له مصطفى كامل ... »

وإن قلت : « كان مصطفى رحمه الله يرى ... » كانت عبارة « رحمه الله » عبارة جميلة . وإن قلت : « كان مصطفى كامل غفر الله له يرى ... » كان في عبارة « غفر الله له » تعريض !

فالوصف يخالف العبارة المأخوذ منها في القيمة الأدبية ، بلا موجب معقول ، وإنما كان ذلك لأن التعابير لا تأخذ قوتها من المنطق في جميع الأحيان ، وإنما تخضع للعُرف وهو الذي يكوِّن الإحساس

الكاتب العمومي

وحين دُعي المسيو ميكلانج جويدى للتدريس في الجامعة المصرية سنة ١٩٢٧ كان عليه ذوقياً أن يقول في المحاضرة الافتتاحية كلمة ثناء على مدير الجامعة والسكرتير العام ، ولم يلتفت إلى اللقب الأخير من الوجهة الاصطلاحية ، وإنما ترجمه عن الفرنسية بجمله « الكاتب العمومي » فضحك الجمهور ، وخرج على بك عمر رحمه الله ، وهو ساخط على « ذوق » المستشرقين !

وكان على بك عمر هو السكرتير العامّ للجامعة المصرية في ذلك الحين

شيطنة أدبية !

كنت قلت : إن مجلة الثقافة لا تدقق في اختيار ما تنشر من الأشعار ؛ فاعترض أديبٌ لا أُحيه بأن مجلة الرسالة تقع في مثل هذا الخطأ بنشر أشعار محمود حسن إسماعيل ! !

والاعتراض غير مقبول ، مع الاعتراف بما فيه من طرافة الشيطنة الأدبية

هل في الأدب ديكتاتورية ؟

يصر الأديب عزت حاد منصور على القول بأن في مصر ديكتاتورية أدبية ، وبأن الأدباء الشبان يعانون عِداء من الأدباء الكهول ، ثم يعجب من أن تتاح الفرصة لظهور بعض الشبان دون بعض ، كالذي تصنع « الرسالة » في نشر مقالات هذا الأديب ، وإغفال مقالات ذلك الأديب ، بلا حدود واضحة تبين سبب النشر وسبب الإغفال

وأجيب بأن من الصعب أن أصدق أن لمجلة الرسالة نية في تقديم فريق على فريق ، وإنما يرجع الأمر كله إلى « سياسة القول » فالأديب الشاب قد يتوهم أن له أن يقول ما شاء ، متى شاء ، بدون أن يلاحظ أن الكلام مقامات لا يدركها غير كبار المقول ، وهذا هو السر في إغفال أكثر مقالات الشبان

وأنا أعرض الموضوعات الآتية :

١ — النص على غلطة جوهرية فيما تنشر « الرسالة » لكتابها المرموقين

٢ — تقديم إقتراح مبتكر لم تنشره الجرائد فيما يجب لإغاثة المهاجرين

٣ — إعداد بحث موجز في تاريخ الدائن التي تعاني أهوال الحرب

٤ — كلمة وجيزة عن الألفاظ التي حرفتها الجرائد أيام الثورة العراقية ، مثل : « يا كوبا » و « فالوجا » في مكان : « يعقُوبه » و « الفلّوجة »

٥ — كلمة في نقد أسئلة امتحان المسابقة لترقية التعليم الثانوي

٦ — كلمة في التعقيب على أحاديث رئيس الوزراء بأسلوب برئ من التحامل والإسفاف

٧ — مقال موجز « عن خط ستالين »

٨ — كلمة عن الأماكن التي سميت باسم « ماجينو » في القاهرة قبل أن يستولي عليه الألمان

٩ — قصيدة في الترحم على « قطار البحر » وأيامه البيض

١٠ — قصيدة في التوجع المكاره التي تعانيها سورية ولبنان وقد أصبحتا ميادين حروب لثلاثة جيوش

١١ — خبر أدبي لا تعرفه اللجنة التي ألفت لتأبين صاحب « البلاغ »

١٢ — أقصوصة تصور سخرية الإسكندرية من غرور المتمدن

١٣ — كلمة عن نوادر المخطوطات في مكتبة الإسكندرية تسارع بنقلها إلى مكان أمين

١٤ — مقال وجيز تحدد به الأغراض الصحيحة لوزارة الشؤون الاجتماعية

١٥ — كلمة صريحة في الأسباب التي دعت إلى انصراف فريق من الشبان عن الزواج

١٦ — دعوة الجامعة إلى إنشاء قاعة للمحاضرات فى قلب مدينة القاهرة

أما بعد فأنا أقرر للمرة الأولى بعد الألف أن الأدب من صور الحياة ، فافهموا عصركم وتأثروه ، يا أبناء هذا الجيل ، ليكون فى أدبكم قوة وروح ، ولا تصنعوا ما صنع الأديب الذى سخر منه صاحب مجلة « منبر الشرق » وقد توهم ذلك الأديب أن الكلام فى اليأس والترحيب بالموت يُقبَل من جميع الناس وفى جميع الأحايين

بعض ما يجهل الشبان

والشبان يتوهمون أن الكتّاب المشاهير[1] لا يُرَدُّ لهم قول ، وهذا خطأ فظيع ، فلأولئك المشاهير مقالات يطوونها آسفين ، إلى أن تسمح بنشرها الظروف

قضيت عامين كاملين فى تعقب « اسكندرية أبى الفتح » ولم أر فرصة لنشر هذا البحث ، لأن الأستاذ إسعاف النشاشيبى سكت عنه بعد أن تعرض له فى مجلة « الرسالة » منذ ثلاث سنين

الشبان وصيد الحوت

حدثنا الأستاذ أنطون بك الجميّل قال :

« كان لأحد الأدباء مقال مؤجّل فى جريدة الأهرام ، واشتط هـذا الأديب فى السؤال عن مصير ذلك المقال ، فقلت إن الجريدة مشغولة بقضية المؤامرات ، فقال : إن موضوع مقاله أهم من تلك القضية ، فقلت : وما الموضوع ؟ فأجاب : صيد الحوت فى بحر الشمال ! »

ومن المؤكد أن هـذه قصة خيالية من مبتكرات رئيس تحرير الأهرام ، وإن أقسم على صحتها بأغلظ الإيمان

ولكن لهذه القصة أشباه ونظائر تقع فى كل يوم ، فأكثر أدباء الشباب يصيدون الحوت فى بحر الشمال ، ولو صادوه فى أيام الهجوم على الترويج لكان كلامهم فيه من ألطف ما تنشر الجرائد والمجلات

ولكنهم مع الأسف يصيدون فى غير أوقات الصيد

الى الأستاذ فريد أبو حديد

صديقى العزيز

قراء « الرسالة » يذكرون — إن كنتُ نسيت — أنى وجهت إليك تحية خالصة بمناسبة سفرك إلى السودان ، وهى تحية لم أرد بها التودد إليك ، وإنما أردت بها إكرامك وإعزازك ، على نحو ما أصنع فى التنويه بمواطنىّ الفضلاء حين يعدون لأداء بعض الواجبات فى أحد البلاد العربية أو الإسلامية

فما الموجب للكلمة الجافية التى ندّت من قلمك فى مخاطبتى ؟ وكيف تصنع بنفسك هذا الصنيع فتتقمّر أحد عبيك بدون أن تفكر فى عواقب ذلك ، وقد أصلحت الأيام ما كان بينى وبينك ؟

هل يؤذيك أن أثير المنافسة بين « الرسالة » و« الثقافة » ، وأنت تعرف أن المنافسة من أقوى الأسباب فى إذكاء العزائم والعقول ؟ وهل تنسى أن المنافسة بين هاتين المجلتين واقعة بالفعل وأن زملاءك فى مجلة الثقافة يحسبون لها ألف حساب ، ويتقون نارها بالصبر الجميل ؟ وهل تنكر فضل هذه المنافسة عليك وقد أخرجتك من وقارك فقلت ما قلت فى صديق لم يكن يسرّك أن يثور بينك وبينه خلاف ؟

ثم تنكر علىّ أن أوجه نصيحة إلى كتّاب « الثقافة » مع أنكم استفتيتم قراءكم سنة كاملة ليدلوكم على سنن الصواب فى الترجمة والإنشاء !

وشاء لك الشوق أن تدعونى إلى الحرص على جمال الأسلوب فكانت هذه الدعوة دليل الوهم بأنك صرت كاتباً له أسلوب ؟ والوهم يصنع بأصحابه ما يشاء

وتلطفت فقلت : « لفت نظرى أحد الأصدقاء إلى أن الدكتور زكى مبارك ذكر اسمى فى شجون حديثه » فهل يكون معنى ذلك أنك لا تقرأ بنفسك ، وإنمـا ترفع الأخبار إليك فى جُذاذات ، كما تُرفع إلى بعض المقامات ؟ تواضع قليلاً ، يا أستاذ فريد ، ليفتح الله عليك !

وتقول إنى لقيتك عفواً فحمّلتنى تحية أهل السودان إلى الأستاذ الزيات ، وأقول إنى لقيتك عمداً لا عفواً لأهنئك بسلامة العودة ، ولأقبس بعض ما طبعت تلك الزيارة على وجهك من نور وصفاء !

أما بعد فأنا غير نادم على التحية التى وجهتها إليك ، لأنى لم أكن أنتظر منك أى جزاء ، ولأنى أرجو أن أتحفك بمثلها فى مناسبة ثانية ، إن أراد الله أن يجعلك أهلاً لكرائم التحيات ، ولعله يريد !

زكى مبارك

(١) يجوز جمع مشهور على مشاهير ، ولو كره بعض المتحذلقين ؟